ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 06 أبريل 2021

السوسيولوجيا ما بعد السوسيولوجيا:
نحو سوسيولوجيا جديدة لعالَم جديد

ألان تورين
ترجمة: محمد بعدي و عثمان لكعشمي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

السوسيولوجيا ما بعد السوسيولوجيا[1]:
نحو سوسيولوجيا جديدة لعالَم جديد[2]

تأليف: **ألان تورين**
ترجمة: **محمد بعدي** و **عثمان لكعشمي**

1 نُشر هذا المقال في الأصل في:

Alain Touraine, La sociologie après la sociologie, Revue du MAUSS, 2004/2 (no 24), pages 51 à 61

https://www.cairn.info/revue-du-mauss-2004-2-page-51.htm

2 العبارة المكملة للعنوان "نحو سوسيولوجيا جديدة لعالَم جديد" لا توجد في عنوان النص الأصلي، وهي من اقتراح المترجمَيْن.[المترجمين].

ملخص:

ليست هناك حاجة إلى تذكير القارئ العربي وغير العربي بأهمية المشروع الفكري والسوسيولوجي للمفكر وعالِم الاجتماع الفرنسي ألان تورين. على الرغم من كونه لم يحظ بالاهتمام الكافي بعد، من طرف المثقفين بعامة والباحثين في الفلسفة والعلوم الاجتماعية بخاصة، خاصة عندنا، سواء تعلق الأمر بترجمة أعماله من كتب ومقالات، أو تعلق الأمر بتفعيلها في الأبحاث السوسيولوجية وغيرها، أو تعلق الأمر بتفعيل سوسيولوجيته المتجددة من أجل فهم عالَم اليوم.

جاء اختيار المقال موضوع الترجمة، الموسوم ب: «السوسيولوجيا ما بعد السوسيولوجيا»، على أساس كثافته وراهنيته، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه يقوم على فكرة تجديد السوسيولوجيا وإعادة تعريفها، ومن ثم إعادة صياغتها على ضوء متغيرات العصر الراهن: من سوسيولوجيا كلاسيكية تقدم نفسها بوصفها علماً للمجتمع وبالمجتمع، مروراً بتحللها وأفولها، وصولاً إلى تسطير برنامج علمي جديد من شأنه أنْ يقعد لسوسيولوجيا جديدة تلوح في الأفق. إنها سوسيولوجيا للفاعلين والذوات أكثر منها سوسيولوجيا للمجتمعات والموضوعات، سوسيولوجيا جديدة ما بعد السوسيولوجيا الكلاسيكية. متوسلين من وراء ذلك، أنْ نكون قد وفقنا إلى حد ما من تقريب المقال المعني وأفكاره إلى القارئ العربي.

أولاً: طبيعة السوسيولوجيا الكلاسيكية وحدودها

إن وحدة السوسيولوجيا التي نسميها كلاسيكية -لأننا نقبل بأنها تنتمي بالفعل إلى الماضي- لم تكن بمثابة وحدة نظرية أو خطاب ما حول التنظيم الاجتماعي، أو الفاعلين الاجتماعيين أو حول أنماط تغيير المجموعات الاجتماعية؛ وإنما كانت وحدة على مستوى موضوع المعرفة، كما أراد لها أوغست كونت Auguste Comte. فقد كان موضوع السوسيولوجيا هو دراسة المجتمع، الذي كان يُعرَّف بالطريقة عينها التي تُعرَّف بها الطبيعة، أو المادة، أو الحياة. في الحقيقة، لقد كان تعريف المجتمع أدق: حيث عُرِّف باعتباره مجموعة من الميكانيزمات المتداخلة فيما بينها، والتي تضمن اندماج أو توليف عناصر متعارضة مع بعضها البعض: فردانية الفاعلين واستدماج المعايير المؤسساتية خدمة للاندماج الجمعي. إننا نسمي مجتمعاً ذلك المجموع الذي يُؤَلِّفُ بين النظام والتقدم، وكذلك بين الفردانية والتضامن.

وبالتالي، فإن مجمل تعريفات المجتمع قد استندت في الماضي على فكرة وجود توليفات ووساطات بين عناصر متعارضة جداً مع بعضها البعض، حيث إن المجتمع وحده، بمعنى مجموع القواعد والإجراءات، هو الذي يستطيع أن يمنع صراعاً مفتوحاً بين هذه العناصر والمكونات، ومن ثم يمنع الفوضى. ما هو هذا التعارض الأساسي الذي يحدد الحداثة؟ إنه تحلل النظام الموضوعي والقيم الذاتية. ففي عدد من البلدان والوضعيات، رأينا تطوراً للعقل والقياس، والتوقع الاقتصادي وتنظيم الشغل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، عاينا تطوراً للوحة، والرواية، والتاريخ المحكي لأول شخص وعلى نطاق أوسع الفردانية الأخلاقية. لعل هذا التفكك لعالميْن هو أفضل تعريف معروف للحداثة؛ لأنه هَدَّ وحدة العالَم الديني الذي كان فيه الإله الخالق كائناً عقلانياً أيضاً.

على الرغم من ذلك، فإن فكرة المجتمع لم تظهر قط مع بداية الحداثة. فمنذ فترة طويلة، كان يُعتقَد بضرورة استبدال الإله بسيد مطلق، وصي على جميع الشرعيات، وفي الوقت نفسه أب للشعب ومدبر لشؤونه، كريم ومحب للعدل. طالما كان تشكيل السلطة السياسية للدولة، من ميكيافيل Machiavel إلى هوبز Hobbes، ومن جون بودان Jean Bodin إلى بوسوي Bossuet، كان في قلب الفكر السياسي؛ إلا أنه حال دون ذلك إلى أنْ عاود الظهور من خلال أفكار هامشية نسبياً، مثل أفكار كارل شميت Karl Schmitt.

لقد تشكلت السوسيولوجيا، انطلاقاً من اللحظة التي تم فيها استبدال الفعل العقلاني للمَلك بمعارضة قوى النظام للوعي، والحياة الداخلية للحياة الخارجية، والأخلاق للاقتصاد، إذ حلت فكرة المجتمع في مركز الحداثة، من أجل الحلول دون انفصال تام للوعي الفردي عن العقلانية الأداتية.

لذلك عينت فكرة المجتمع الوسائل التي تحافظ على مسافة حقيقية بين الفاعل والنسق، ولكنها تبقى مسافة محدودة ومراقبة بواسطة ميكانيزمات مؤسساتية. يمكننا تعريف هذه السوسيولوجيا الكلاسيكية، باعتبارها بحثاً عن طريق ثالث بين حتميات الإدارة العقلانية للاقتصاد من ناحية، ومتطلبات الوعي الأخلاقي من ناحية أخرى. لقد كانت وضعية دوركهايم Durkheim، قريبة من وضعية أصحاب النزعة التضامنية الذين حاولوا التدخل بين اليمين والاشتراكيين الثوريين، بما هي أنموذج لوضعية ونوايا علماء الاجتماع الذين سيتعاطفون كثيراً، لاحقاً، مع دولة الرفاه l'État-providence ويُدَعِّمُون جميع أشكال النزعة الاشتراكية غير الثورية، خاصة في أوروبا.

إن هذا التعريف العام لحقل السوسيولوجيا لا يستبعد نهائياً الاختلافات العميقة بين مدارس الفكر المختلفة. فقد أعطى عمل تالكوت بارسونز Talcott Parsons أهمية مركزية للمؤسسات التي تُؤَمِّنُ المجتمع وظيفياً. بعيداً جداً عنه، أصر كتاب آخرون على الطابع القمعي لنظام اجتماعي منغلق على نفسه. فضلاً عن كون الفكر الأكثر سيادة على مدار القرن، وهو فكر ماكس فيبر Max Weber، قد جند معرفة هائلة من أجل سؤال مهم حول العلاقة بين الدين -وبالتالي الثقافة- والتطور الرأسمالي للاقتصاد. يتطلب الأمر كتاباً كاملاً لكي نبين وحدة السوسيولوجيا الكلاسيكية وتعددها في الآن ذاته، لكن تكفي الإشارة والحالة هذه إلى المبدأ الأساسي لتعريفها ألا وهو: البحث عن توليفات ممكنة بين الفاعل والنسق، واللذين يكونان منفصلين دائماً، بل متعارضيْن حتى، خاصة في المجتمعات الحديثة، والتي لا يمكن أن تُقْطَع علاقاتهما من دون هدم للحياة الشخصية كما هو شأن الحياة الجَمْعِية. لقد كانت أوروبا هي التي جاءت بمعظم الأفكار لبناء السوسيولوجيا الكلاسيكية، ولكن في الولايات المتحدة الأمريكية تم تطوير أولى البحوث السوسيولوجية المكرسة إلى حد كبير لدراسة التماسك الثقافي، الذي كانت أمريكا الشمالية مصدراً له عادة، خاصة من طرف المهاجرين من ثقافة بلدانهم الأصلية إلى داخل مجتمع وطني يتمتع بقدرة كبيرة على الإدماج.

هذه المجموعة من الأعمال والأفكار والبحوث، هي التي أسست السوسيولوجيا الكلاسيكية منذ دوركهايم إلى سنوات الستينيات[1]، التي تطورت بعد القطيعة مع العالَم الفكري للأنوار، حيث تم هدم التصور الكلاسيكي لل»ذات» من طرف نيتشه Nietzsche وفرويد Freud، قبل أن يبني دوركهايم أعماله وقبل أن تصاغ الرؤية العقلانية للتنظيم الاجتماعي والتقدم، بل قبل ذلك، حيث وضعه ماركس Marx موضع شك. إذن، ليست السوسيولوجيا الكلاسيكية بمثابة تجليات متأخرة لفلسفة الأنوار. فالتفكير على هذا النحو سيكون

1 تجدر الإشارة هنا إلى أن تورين لديه تصنيف مغاير لتاريخ السوسيولوجيا، بما هو تصنيف تاريخاني، يختلف كثيراً عن التصنيف المدرسي المعهود. بمعنى آخر، إن السوسيولوجيا الكلاسيكية عنده تتجاوز الأعمال التي كتبت بعد سنة 1930، إلى الأعمال والأبحاث التي تمتد إلى نهاية الستينيات؛ أي ما قبل حركة مايو 1968. فضلاً عن كون السوسيولوجيا المعاصرة عنده تبدأ في اللحظة التي يتخلى فيها علماء الاجتماع عن فكرة المجتمع، ويحلون محلها فكرة الفاعل أو بالأحرى فكرة الذات الفاعلة. فوفقاً لهذا التصنيف يمكن إدراج الكثير من علماء الاجتماع المسمون معاصرين ضمن السوسيولوجيا الكلاسيكية، لكونهم ظلوا يستظلون بطريقة أو بأخرى بفكرة المجتمع.[المترجميْن].

اختزالاً لهذا العِلم الخِصب في عقلانية بعيدة كل البعد عن حسه السوسيولوجي. إن هذه السوسيولوجيا الكلاسيكية تنتمي إلى حركة كبيرة من الأفكار، والتي تشكلت في نهاية القرن التاسع عشر، من خلال مساءلة جذرية لعقلانية الأنوار.

حظيت هذه السوسيولوجيا الكلاسيكية بانتشار واسع في جميع أنحاء العالم، انطلاقاً من مراكزه الرئيسة الموجودة في ألمانيا، وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وفي كل مكان فرضت فيه فكرة المجتمع نفسها باعتبارها خَلْقاً لدولة- أمة État-nation. خاصة في أمريكا الشمالية، حيث كانت الدول الجديدة مستوحاة خلال القرن التاسع عشر من الدستور الأمريكي وروح الثورة الفرنسية، كان الفكر السوسيولوجي موضع ترحاب كبير، إلى درجة أصبحت فيها الوضعانية الكونتية، في بلدان مثل البرازيل والأرجنتين، أدلوجة للطبقة الوسطى الجديدة، معارضة للكنيسة الكاثوليكية والأوليغارشية القديمة. لكن السوسيولوجيا الأمريكو-لاتينية لم تنتج أعمالاً مهمة إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

من جهة أخرى، ففي الوقت الذي تمكنت فيه الدولة من السيطرة الكاملة على التحديث، ومن ثم لم تعترف باستقلالية المجتمع المدني وبدرجة أقل بتفوق هذا الأخير على العالَم السياسي، فإن السوسيولوجيا لم تتمكن من أي اختراق بهذا الصدد. طالما كانت الدكتاتوريات خصماً حازماً للسوسيولوجيا، وعملت الأنظمة الشمولية les totalitarismes على حظرها أو تدميرها، كما حدث في معظم بلدان أوروبا الوسطى -المجر وتشيكوسلوفاكيا بخاصة- حيث كانت السوسيولوجيا قد تغلغلت بقوة قبل مجيء الأنظمة السلطوية أو الشمولية.

في الوقت نفسه، ولأن السوسيولوجيا مرتبطة بالدولة- الأمة وبوجود مجتمع مدني يتمتع باستقلاليته في إطار الدولة- الأمة، فقد ظلت غائبة عن البلدان المستعمَرة، وكذا عن البلدان التي استمرت فيها سلطة القادة التقليديين.

ظلت فكرة المجتمع، إذن، خارج أجزاء كبيرة جداً من العالم، بل أكثر من ذلك، لقد رفضت أيضاً جزءاً كبيراً من الحياة الاجتماعية الحقيقية للبلدان التي كانت تدرسها. بغض النظر عن رفضه للثقافات التقليدية، لقد رفض الفكر الذي أراد أنْ يكون حديثاً وعقلانياً أيضاً، الجماعات الصغيرة أو أنماط التفكير الديني. لم تفكر السوسيولوجيا الكلاسيكية في العالم في كليته، بقدر ما فكرت فيما يسمى بالعالَم المُتَحضِّر فحسب. وهذا ما نتج عنه تعارض شرس بين المُتحضِّرين والمتوحشين أو المستعمَرين. وقد تجلى هذا الاستقطاب بشكل واضح في المجتمعات الـ«متحضرة» كما في المجتمعات الأخرى؛ لأنه سعى إلى حماية العقل والتقدم ضد ضغوط الفئات الدنيا، الجاهلة أو التي تم التلاعب بها: البروليتاريا؛ أي الفئات الدنيا من الأُجراء، وبنفس

القدر النساء، اللواتي يعتبرن عبيداً لمشاعرهن وتقاليدهن. لقد كانت السوسيولوجيا الكلاسيكية، التي بحثت بوعي في الاندماج الاجتماعي وفي الوظائف، فكراً يُقِيم تعارضاً بين المتحضرين والبرابرة، بين المُلاَّك والأُجراء وبين الرجال والنساء.

إن السبب التاريخي الأول لأفول هذه السوسيولوجيا الكلاسيكية هو أن أساسها الأكثر ثباتاً؛ أيْ إقامة التعارض بين الذين يملكون والذين لا يملكون، وكذلك بين الرجال والنساء، قد تم تحطيمه شيئاً فشيئاً من خلال سلسلة من الحركات الاجتماعية الكبرى التي قامت على البحث عن التحرير وعلى فكرة المساواة في الآن ذاته، حيث رُفِضَت السوسيولوجيا في كثير من الأحيان من قبل أدلوجات هذه الحركات بدل تعزيزها من خلال مطالبهم. إن الماركسية على وجه الخصوص، لم تمارس تأثيراً كبيراً ومباشراً على السوسيولوجيا، كما أن فكرة سوسيولوجيا ماركسية ظلت ضعيفة ومرتبكة؛ فهي لم تصلح سوى لإظهار أنها كانت فارغة تقريباً بينما كانت(السوسيولوجيا) الثانية تتطور.

ثانياً: أُفُول السوسيولوجيا الكلاسيكية

كان هذا الأفول نتيجة لتحولات الحياة والفعل الاجتماعييْن نفسهما. فمن المؤكد أن تغيرات موضوعية للوضعية الاقتصادية، أو المهنية أو غيرها لعبت دوراً في ذلك التحول، غير أن أزمة التمثلات القديمة للحياة الاجتماعية هي التي أثارت، إلى جانب أفول السوسيولوجيا القديمة، خلق مجال ثقافي جديد، حيث تشكلت مجموعة من أنماط التفكير التي تؤسس، في اللحظة الراهنة، ما يمكن أنْ نسميه بالسوسيولوجيا المعاصرة، بما هي سوسيولوجيا للحداثة الفائقة une sociologie de l'ultramodernité. سأدافع هنا عن فكرة مفادها: في الواقع، إن هذه السوسيولوجيا الجديدة، تحتل مكاناً أهم، في جغرافيا المعارف، مِن السوسيولوجيا الكلاسيكية، خاصة لأنها عرفت كيف تنتقد، ولكنها عرفت أيضاً كيف تدمج النتائج التي تم التوصل إليها عن طريق التحليل النفسي والماركسية.

إن التحولات التي أثارت هذا التغير في الفكر السوسيولوجي، وعلى نطاق أوسع في الفكر الاجتماعي برمته، انطلاقاً من مستوياته الأكثر شعبية وصولاً إلى مستوياته الأكثر تجريداً، معروفة جيداً بما يكفي لاستدعائها بإيجاز. لكن يجب التأكيد على السبب الأكثر تأثيراً في تغير الفكر السوسيولوجي، ضمن هذه التحولات. إننا نقول ما هو أساسي عندما نستحضر الانتقال من الحياة الاجتماعية المحددة بعبارات اقتصادية قبل أي شيء آخر إلى حياة اجتماعية أخرى، حيث تحدد المقولات الرئيسة من خلال عبارات ثقافية، وبالتالي تتعلق بميدان الشخصية؛ أيْ علاقة الذات بذاتها، بدلاً من علاقتها بالمؤسسات الاجتماعية ووظائفها.

لقد كانت سنوات الستينيات والسبعينيات، تاريخياً، منذ حركة حرية التعبير Free Speech Movement في كاليفورنيا Californie إلى حركة 68 مايو في فرنسا بخاصة، ولكن أيضاً في ترينتو Trento أو نيويورك New York، وحتى الحملات الأمريكية الكبرى المساندة للحقوق المدنية للسود والمناهضة لحرب فيتنام، هي التي شهدت بشكل متسارع تحولاً في المجتمع والثقافة، ومن ثم تحولاً في الحضارة التي لم يكن يبدو أن السوسيولوجيا الكلاسيكية قادرة على فهمها، كما اتضح من خلال التدهور السريع لتأثير تالكوت بارسونز Talcott Parsons، مُعَلِّم السوسيولوجيا بلا منازع في الخمسينيات وأوائل الستينيات، مع إهماله إلى حد كبير منذ السبعينيات.

في الواقع، إننا نشهد انقلاباً لوجهات النظر. فلم يعد ممكناً تفسير الفاعل الاجتماعي بعبارات من قبيل: الوضعيات أو التقييمات الموضوعية أو الاقتصادية أو غيرها، بل إن الفاعل الثقافي، وصورته عن نفسه ومطالبه هي التي تستحوذ على جزء متسارع النمو من الحياة الاجتماعية، في ضوء عولمة الاقتصاد la globalisation de l'économie التي تفصل هذه الأخيرة عن الـ«مجتمع» كله أو عن الدول- الأمم، بشكل ملموس أكثر، والتي لا يمكن أن نعد من بينها الولايات المتحدة التي غدت إمبراطورية. لم يعد الـ«مجتمع» منتوجاً للتنظيم الاقتصادي فحسب. والاقتصاد، من جهته، صار «مُتَوَحِّشاً»، إذ يحدد من خلال السوق أفضل من السياسات الاقتصادية أو بالأحرى من خلال مشاريع الشركات الكبرى. ومن هذا المنطلق، أضحى المجال الاجتماعي والسياسي، في الوقت نفسه، مشغولاً أكثر فأكثر، على الأقل على المستوى الوطني، بالمشكلات المتعالقة في المقام الأول بعلاقات كل فرد مع ذاته. ينبغي أن يضاف إلى هذا التحليل الموجز للغاية أن هذا التوجه الجديد للفعل تُجاه ذاته، والذي يحل محل غزو الطبيعة عبر بناء الذات، هو قبل كل شيء نموذج أنثوي يستبدل أو بالأحرى يتجاوز ويتضمن النموذج الذكوري، الذي يفقد مكانته المهيمِنة.

ثالثاً: السوسيولوجيا ما- بعد الكلاسيكية

هل يمكن أنْ نحافظ، في هذه الوضعية الجديدة، على التعريف الذي قَدمْتُه للسوسيولوجيا الكلاسيكية، باعتبارها جهداً توليفياً بين العقلانية الأداتية والفردانية الأخلاقية؟ لا، ببساطة لأن الوضعية الجديدة، التي تحددها عولمة الاقتصاد وتقوية الذات الشخصية، تؤدي مباشرة إلى قطيعة شبه تامة بين عالَم الموضوعية وجهود الذات لتكون هي الغاية الخالصة لفعلها. إن التماثلات القديمة تلاشت؛ غَدَا فكر عالِم الاجتماع وتدخله يؤثران بشكل كلي على جانب واحد. إنهما يسعيان لاكتشاف وتوسيع مجال اجتماعي محدد بوصفه مجالاً مُؤَمِّناً للذوات الشخصية والجمعية التي تبحث، من خلال الفعل الجمعي أو السياسات العامة أو

الميكانيزمات المؤسسية، عن استثمار مجال ترابي ما un territoire، لكي يتسنى لهذا الأخير أنْ يكون مُحَوْكَماً gouverné، بُغية تلبية احتياجات الذات، خاصة حريتها الخلاقة. مجال ترابي مقدس كنا نفضل أنْ ننظر إليه في الماضي، باعتباره معادياً للاجتماع antisocial، ولكن أصبحت تشغله، على العكس من ذلك، مؤسسات جديدة تتعارض أهدافها مباشرة مع أهداف المؤسسات القديمة التي كانت تميل إلى تقوية المجتمع، على حساب القمع الذي يمارس على الأفراد أو الفئات.

هل ينطبق هذا التعريف للحقل الجديد للسوسيولوجيا على أكثر البلدان «نموّاً» فقط أم على جميع البلدان، وهل ينطبق على جميع فئات المستوى الاقتصادي، والتربية، والسن أو الجنس داخل كل بلد؟ في الماضي، كانت الإجابة سلبية، لدرجة أن السوسيولوجيا والإثنولوجيا -ولم لا التاريخ؟- كانت تدرس أنماطاً متنوعة من المجتمعات.

لقد أصبحت اليوم عولمة التبادلات الاقتصادية والمالية والثقافية متطورة، إلى درجة صار فيها من المستحيل رسم الحدود بين المجتمعات «النامية» أو غيرها أو حتى بين تلك التي تتبع مسارات مختلفة من التحديث. لكن لا يمكننا الرضا عن الصورة السطحية لعالَم متساوٍ بالنسبة إلى الجميع؛ بل يجب إيجاد القاسم المشترك بين فردانية البلدان الأغنى والدفاع الكبير أو العدواني عن التقاليد أو المشاريع الثقافية التي تهددها العولمة الاقتصادية والثقافية. لدرجة أن دراسة تكاملهما وأشكال التوليف بينهما تشكل الجزء المركزي من التحليل السوسيولوجي اليوم.

هذا الاندماج للوضعيات المختلفة جداً لا يكون ممكناً إلا انطلاقاً من اللحظة التي لا يتماهى فيها أحد مع الحداثة كلية، أو التي يَعرف فيها الجميع بأن نمط التحديث الخاص بهم ليس هو المسار الوحيد الذي يؤدي إلى الحداثة، ويَعرفون بأن نمط التحديث الخاص بهم له سمات مميزة ومخصوصة، والتي لا تمنع جميع الأفراد والمجموعات الاجتماعية والثقافية من مواجهة المشكلة ذاتها: كيف يمكن التوليف بين المشاركة في العالَم الاقتصادي المُعَوْلَم وعقلانيته الأداتية مع الدفاع عن مشاريع ثقافية مخصوصة، ومع الاعتراف للكل كما للذات بالحق في تفعيل مثل هذا التوليف، والذي يؤدي إلى الربط بين ثلاثة عناصر:

- الاعتراف بالعالَمية الاقتصادية، والتي ليست أمراً كونياً، لكنها تبقى إطار للنشاط المشترك بين الجميع بشكل متصاعد؛

- تأكيد وتعزيز التوجهات الثقافية التي تحيل إلى القيم الكونية؛

- أخيراً، حق الجميع المعترف به في تفعيل توليف خاص بين العنصريْن الأوليْن بطريقة خاصة.

هذه الكلمات القليلة تثير بوضوح بعض النقاشات المركزية للفكر الاجتماعي اليوم وتوفر وسائل الخروج من الصراعات بين التعارضات المُفتعلة. هناك بالتأكيد بعض الشيوعيين الذين يعطون الأولوية المطلقة للدفاع عن الهوية الثقافية، والذين يعارضون الليبراليين الذين يعتمدون على فتح الأسواق من أجل تدمير أية محاولة للتفتيش عن تجانس وعن طهارة أثارت كثيراً من الحروب الأهلية والدولية.

لكن هاتيْن الوضعيتيْن لا تتطابقان بشكل مباشر، وهذا ما أشرت إليه عند التذكير بأنه ليس ثمة عبارتان متواجهتان بقدر ما هناك ثلاث عبارات؛ لأن الحياة الاقتصادية لا يمكن تحديدها بمبادئ التوجيه الكوني للثقافة، وإنما يمكن تَوْجِيهُها دائماً بحقائق ملموسة، ومن ثم خاصة.

وبناء عليه، فإن الأمر لا يتعلق بالنسبة إلى السوسيولوجيا بالاختيار بين نزعة تعددية ثقافية un multiculturalisme يُمكن أنْ تؤدي إلى فقدان التواصل بين الثقافات المنغلقة على ذاتها، وبين «نزعة جمهورية» républicanisme أنتجت منها فرنسا أكثر التعابير تطرفاً. إن إقصاء هاتين الصيغتين المدمرتين اجتماعياً، واحدة تلو الأخرى، هو ما يجب أنْ يكون نقطة انطلاق. فأولئك الذين يعتقدون أن العالَم منقسم بين الغرب الليبرالي والعالَم المسلم الطائفي وحتى الثيوقراطي، يخلقون الوضعية التي يعتبرونها خطيرة. ليس عالِم الاجتماع هو مَن يصوغ اختيار السياسات الملائمة؛ ولكن بإمكانه أنْ يكشف أن الصراع بين الحضارات، المسطر من طرف صمويل هنتنغتون Samuel Huntington، والذي كان بعيداً عن الواقع، يمكن أن يغدو حقيقياً وواقعياً بشكل رهيب ويخلق تكتلات حيث تمارس، من كلا الجانبين، سلطة الواحد، المحارب والمدافع عن القانون، تجاه تنوع المجموعات الاجتماعية والمصالح الخاصة.

ها هنا تلتقي سوسيولوجيا اليوم بسوسيولوجيا الأمس. لقد خرجنا لعقود من الزمن خاضعين لفكرة أن المُتغلَّبين ليسوا سوى ضحايا فقط، إما يتم التلاعب بهم ومعاقبتهم أو مراقبتهم، بينما لا يمكن أن يكون هناك فاعل إذا لم نستطع الذهاب إلى ما بعد إدانة السلطات. لقد كان هذا الفكر اللامع محطماً لذاته ما دام اختزال المُتغلَّبين في وضع الضحايا هو الوضعية التي تخدم مصالح المُتغلِّبين بشكل أفضل. إن سوسيولوجيا الإدانة الخالصة هذه قد تم استنفادها، وإنْ بقيت حية في ذاكرة الكتب، وإنْ استمر ميشيل فوكو Michel Foucault في ممارسة تأثير ملحوظ في مجمل ميادين الفكر الاجتماعي. إن ما يُحْيِي السوسيولوجيا هو الاعتراف العام المتزايد بأن شعلة نار التاريخ لم تنطفئ بعد، ولا سيما وأننا نعيش في حرارة مجتمع فوق- حديث une société ultramoderne وليس في برد مجتمع ما بعد- حديث une société post-moderne. لأنه في أرجاء المعمورة وفي جميع قطاعات الحياة الاجتماعية، يظهر الفاعلون من جديد. في نهاية القرن التاسع عشر، لم يكن شغف الجمهوريين عندنا بالعلمانية la laïcité ليمنع الحركة العمالية من أن تصبح الفاعل الأهم في التاريخ الاجتماعي لهذه الحقبة. لا يكفي اليوم، التنديد بالنزعة الشيوعية الأكثر عدوانية

لمنع الصراع من أجل الاعتراف بالحقوق الثقافية كي تكون أيضاً أساسية مثلها مثل الصراعات من أجل الاعتراف بالحقوق الاجتماعية التي كانت سائدة منذ مائة عام وتلك التي كانت أكثر مركزية، قبل قرن، بخصوص الحقوق المدنية. إن الواجب الأول لعالِم الاجتماع اليوم هو رفض خطابات الإدانة التي تخفي بشكل سيء الدفاع عن الامتيازات ونفي الآخر، باعتباره مختلفاً ومساوياً في اللحظة نفسها. هذا العمل، الذي يجب أن يكون خاصاً بنا كعُلماء اجتماع، لا يمكن تنفيذه إلا من خلال مساهمة جميع الأطراف في وقت واحد، في إيران كما في كندا أو في بيرو، انطلاقاً من الحركات النسائية والدفاع عن الأقليات الإثنية، مروراً بالمناقشات الدائرة حول المدرسة وصولاً إلى نضال المدافعين عن البيئة.

رابعاً: البحث عن الفاعلين

لكن ينبغي أنْ نتوقف هنا للرد على اعتراض يُسمع من السطر الأول لهذا النص. ألا يرمي هذا البرنامج السوسيولوجيا بين أحضان الأدلوجة؟ وهل ينبغي لنا، بعد أغلب الفاعلين أنفسهم، التكلم بعبارات التضاد بين الخير والشر وإصدار أحكام قيمة باستمرار؟ هذا الاعتراض ليس قوياً، ولكن يجب استبعاده؛ لأن الموضوع الرئيس للسوسيولوجيا هو دراسة الجهود المبذولة للتخلص من الرؤى المؤدلجة. إننا ندرس تصرفات موجهة بقيم، لكننا لا نفسر هذه التصرفات بالمعتقدات؛ نحن نراها كجهود لخلق فاعلين أحراراً ومسؤولين، يبحثون عن طرق لعبور الجبال التي تحجب آفاقهم. وبالطبع، ينبغي علينا أن ندرس بنفس القدر أولئك الذين يسعون إلى إخراج أنفسهم من الشيوعية للدفاع عن حريتهم، مثلما ندرس أولئك الذين يدافعون عن حقوقهم الثقافية ضد ما يسميه البعض قوى السوق، التي لا يمكن السيطرة عليها ولا التنبؤ بها.

إن ما يمنح السوسيولوجيا وحدتها هو البحث عن الفاعلين. ويبقى خارجها أولئك الذين يؤكدون أن جميع المحاربين قد ماتوا، أو أن المعتقدات والعواطف قد تم تذويبها في المصالح، منذ مدة. وعلى العكس من ذلك، فإن الدور المركزي يبقى لأولئك الذين يرون ولادة حركات اجتماعية وسياسية وثقافية جديدة. لهم إضافات، أولئك الذين يسعون -وهم كثر- إلى اكتشاف فاعلين جدد، ومَن يدرسون مقاومة أنظمة الهيمنة، والذين -يكونون أكثر تفاؤلاً- يصفون تشكيل مجالات جديدة لمأسسة أو ممارسة الحقوق الثقافية والاجتماعية. كل ميادين البحث هذه تكون مترابطة ولا تشبه بأي حال من الأحول التقسيم القديم للحياة الاجتماعية إلى مؤسسات: العائلة، الإنتاج، الدين، الحياة السياسية، إلخ.، والتي اضطر علماء الاجتماع إلى دراستها بشكل منفصل. لذلك، ينبغي مَوْضَعَة دراسة تصرفات النساء في مركز السوسيولوجيا، ليس لأنه موضوع تم إهماله لفترة طويلة جداً، وليس حتى لأن النساء يناضلن من أجل حقوق جديدة، ولكن لأن الدراسة النسوية تقع في صلب تحليل المجتمعات، ولأن الأمر هنا يتعلق بمساواة واختلاف أو أيضاً بعلاقات بين الفعل الاجتماعي

وتوجهات أعمق من الحياة الاجتماعية، سواء أكان الأمر متعلقاً بالليبيدو la libido أم بإثبات وجود الأنا كذات، وبالتالي بعالَمية حقوق الإنسان. لعل أفضل اختبار لانبعاث السوسيولوجيا وجودتها في بلد ما هو: تلك الأهمية التي توليها للاعتراف بأقل الاختلافات القابلة للاختزال في الوظائف الاقتصادية أو السياسية المُمارَسَة داخل مجموع اجتماعي معين.

في البلدان التي تكون فيها السوسيولوجيا قد تجذرت بشكل أفضل منذ فترة طويلة، يجدر بدراسة تصرفات النساء أنْ تكون في مركز السوسيولوجيا العامة، وألا تشكل فقط ميداناً خاصاً للدراسة. على أنْ يطال ذلك جميع البلدان، حيث ينطبق تعريف الحقل الجديد للسوسيولوجيا: دراسة الفاعلين الثقافيين وصراعهم مع القوى اللا- شخصية للسوق من جهة، والجماعات من جهة أخرى.

يمكنني الآن أنْ أقدم كلمة، من أجل تعريف المجتمع، وهي الكلمة التي استعملت سابقاً، وكانت قد اتخذت من أجل الاستفزاز. إن السوسيولوجيا الراهنة تدرس التصرفات الأكثر فردانية، تدرسها في حد ذاتها وفي تعارض مع المنطق الجمعي، سواء كان اقتصادياً أو إثنياً أو دينياً. تثير كلمة الفردانية أولاً وقبل أي شيء آخر، القطيعة مع الانتماء الاجتماعي والتبعية لكل ما يُشكل المواقف والآراء والتصرفات، أتعلق الأمر بقادة الرأي opinion leaders أم بوسائل الإعلام.

غير أن الفردانية اليوم لا يمكن أن يكون لها سوى معنى واحد، على عكس المعنى التقليدي الذي أثرته للتو. لا يمكن تحقيق توليف بين المشاركة الاقتصادية والهوية الثقافية على المستوى المجتمعي؛ على مستوى الفرد فقط، يمكن التوليف بين الدفاع عن الهوية الثقافية -إرث أو مشروع جديد- أو تشكيلها، وبين المشاركة في الاقتصاد العالمي. لهذا، في الأسرة كما في المدرسة، نرى -على الرغم من المقاومة القوية- أن فكرة كون الطفل، التلميذ، هو الذي يجب أن يكون في مركز المؤسسة، هي فكرة تفرض نفسها. ومن خلال المناقشات المطولة بين مؤيدي ومعارضي المدرسة الموحدة في فرنسا، يمكننا استنتاج أن الحفاظ على مدرسة موحدة لا يمكن تحقيقه إلا من خلال إضفاء طابع فردي قوي على العلاقات بين المعلمين والمتعلمين.

وبالتالي، فإن إحدى التيمات الرئيسة للسوسيولوجيا هي قلب مفهوم المؤسسات ودورها. إننا نحدد هذه الأخيرة من خلال وظيفتها في اندماج نظام اجتماعي ما. فهي ما يحدد ويفرض احترام معايير، وحتى قيم مجتمع معين. بالمقابل، وعلى نحو متزايد، نرى فيها أدوات دفاع بالنسبة إلى الأفراد ولقدرتهم الدفاعية ضد المعايير. فمجتمعنا يكون، أقل فأقل، مجتمع أشخاص خاضعين، وأكثر فأكثر مجتمع متطوعين وفاعلين.

من هذا المنطلق، يُمكن لهذه الأفكار العامة أنْ تقود التحول الضروري للسياسات العمومية في الميدان الاجتماعي. في كل أرجاء المعمورة نرى استنفاذ دولة الرفاه، التي كانت قد غيرت حياتنا طوال نصف قرن.

ولكن لا يبدو أن منافع الاقتصاد الأقل سيطرة كافية للتغاضي عن تصاعد اللا مساواة والإقصاء. لذلك، غالباً ما تتم مساءلة علماء الاجتماع ويتساءلون هم أنفسهم حول أفضل الطرق لإدارة الإنفاق العام الذي يجب أن يظل في مستوى عالٍ، ولكن وفقاً لمناهج أقل تعلقاً بالدولة، وأكثر فعالية وبالخصوص أكثر نشاطاً في مكافحة اللامساواة. إن أهمية مشاكل الحياة الشخصية تجعل هذا المجال ميداناً متميزاً للاكتشافات: على سبيل المثال، كيف السبيل إلى إدارة أفضل للمشاكل المرتبطة بالمناهج الجديدة للإخصاب، والشيخوخة، وبغض النظر عن مشاكل المستشفيات والمدارس، فضلاً عن مشاكل التكيف في العمل بالنسبة إلى الأقليات أو المُعاقين؟ إن الضرورة الملحة إلى تطبيق سوسيولوجيا متجددة على «المشكلات الاجتماعية» يتصاعد الشعور بها في كل مكان، مما يعزز ويقوي حضور السوسيولوجيا نفسها من خلال إظهار إمكانيات تطبيقها.

إن اللوحة التي تم تقديمها والحالة هذه، هي لوحة لسوسيولوجيا منشغلة جداً بالتخلص من الصور القديمة المتعالقة بها، ولا سيما إظهار حدود التأثير الذي يُفترض في الـ«اجتماعي» ممارسته على الأفراد. إلى درجة قد يعتقد فيها المرء أن ما هو مقترح هنا، ليس إلا سوسيولوجيا مضادة أكثر منها سوسيولوجيا جديدة.

خامساً: عودة إلى المجتمع؟

لهذا، ينبغي لفت الانتباه إلى تيمة مكملة لموضوع الذات ومعارضة له حتى، والتي طالما شغلت حيزاً مهما في السوسيولوجيا. هذه التيمة تعيدنا على ما يبدو، من خلال اسمها ذاته، إلى أسس السوسيولوجيا؛ يتعلق الأمر بالرابطة الاجتماعية le lien social، وهو مفهوم ليس له نفس المحمول في كل اللغات، مما يؤدي غالباً إلى تفضيل الكلمة الألمانية بيندونغ Bindung على ما يقابلها في اللغات الأخرى. وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الأمر يتعلق هنا برد فعل ضد الأنوميا l'anomie، أو وضد أزمة كل أوساط الانتماء وبشكل أعم ضد التفكك، الظاهرة للعيان، بل العكس هو الصحيح؛ لأن الأمر يتعلق بإعادة بناء الرابطة الاجتماعية، انطلاقاً من مطالب الفاعل الفردي. لنستخدم اللغة الأكثر تداولاً هنا: يرتبط تقديرنا لذاتنا بالصورة التي لدى الآخرين عن أنفسنا وبشكل أوسع وعينا بالانتماء إلى مجموع معين، وهو ما يسميه فرانكو كريسبي Franco Crespi وزملاؤه بالتضامن، مع أخذ هذه الكلمة بمعنى مختلف عن تلك التي أعطتها إياها الحركة العمالية.

يتعلق الأمر في الواقع باستدعاء للجماعة، ولكن هذه الأخيرة لا علاقة لها بفولكيش völkisch[2]؛ بل على العكس من ذلك، فهي تعتمد على البحث عن احترام الذات، وبالتالي عن وعي فرداني، لكنه مرتبط بإعادة صياغة الرابطة الاجتماعية والتضامن. يجب تسطير المسافة التي تفصل تيمة الذات عن تيمة الأنا؛ لأن الذات تتحدد خارج ما هو اجتماعي وحتى ضده جزئياً، بينما الأنا تظل مرتبطة بالاندماج الاجتماعي. إذا كان بإمكاننا تطبيق المقولات السياسية على عالَم المعرفة والمناهج الفكرية والثقافية، فيمكننا القول إن مفهوم الذات له نبرة «اليسار» ومفهوم الأنا له نبرة «اليمين»، ولكن بدون إعطاء أهمية كبيرة لهذه النعوت. في الواقع، هذه العبارات ليست ذات أهمية تذكر في حد ذاتها، لكنها تفيد بشكل كبير في تنوع المناهج والتوجهات التي تقعد للسوسيولوجيا الجديدة. ومع ذلك، فإنها تحافظ على وحدتها بما يتجاوز هذا التنوع في التوجهات، وهذه الوحدة تأتي من تحطيم الأفكار القديمة، مثل المجتمع أو النسق الاجتماعي، والتي كانت تضمن وجود صلة قوية بين المعايير والمؤسسات وسيرورات التنشئة الاجتماعية.

ثمة حاجة ملحة ومستعجلة لقبول وتقبل ما يمكن أن نُسميه بتحول الإبدال paradigme، والذي يحظى بالأهمية نفسها للتحول الإبدالي الذي جعلنا ننتقل من فلسفة القانون والدولة إلى السوسيولوجيا الكلاسيكية. إن تباطؤنا في تفعيل هذا التحول الإبدالي هو الذي يفسر أزمة الفكر السوسيولوجي كما هو الشأن بالنسبة إلى أزمة السياسات الاجتماعية، ويفسر السهولة التي تم من خلالها القبول بسياسة وفكر «ليبراليين» يتم تحديدهما بشكل أوضح بواسطة ما يرفضانه، وليس بواسطة ما يقترحانه. وبالتأكيد، فإن الاستعجال الأكبر يكمن في التخلص من التشاؤم الشديد الذي لا يرى سوى الضحايا، حيث يتعين علينا اكتشاف الفاعلين. ولكن بمجرد أن يتم ذلك، يجب علينا الانفلات من ليونة ما يسمى بالفكر الليبرالي الجديد الذي يختزل إمكانيات الفعل في التكيف الناجح مع الإكراهات الخارجية.

تفسر السوسيولوجيا اليوم بمستقبلها أكثر من ماضيها. إنها تبنى وتبتكر وتحول باستمرار بدلاً من أنْ تتكون وتتشكل من مدارس معينة، حيث تستمر الحياة عبر عدة أجيال. لقد أُسست وقُعدت سابقاً كمجموعة من الأسئلة والحساسيات، الأكثر انتشاراً على هذا الكوكب من أي شكل آخر من الفكر الاجتماعي. لكن هذا الوجود الواقعي والفعلي للسوسيولوجيا الجديدة لم يلازمها -بعد- تفكر كافٍ حول ذاتها. لعل تعدد اللغات أو تنوع الأهداف حتى، يبدو أنه يقسم، أكثر فأكثر، مجال المعرفة الذي يعتقد البعض أنه مجرد حجاب خفيف يخفي تنوع المصالح والعواطف بشكل سيء.

---

2 فولكيش Völkisch: هي عبارة ألمانية مركبة من كلمتي «إثني/ قومي» و«شعبي»، وهي تحيل إلى حركة ألمانية قومية متعصبة ظهرت نهاية القرن التاسع عشر وصولاً إلى حركة النازية. إنها حركة معادية للحداثة. باختصار شديد إنها حركة رجعية متطرفة تقول بقومية ألمانية متطرفة ومتمركزة حول ذاتها. من هنا يمكننا اشتقاق معناها المشار إليه في سياق هذا المقال: يمكن ترجمتها بالجماعة الإثنية العصبية، بوصفها جماعة اجتماعية قاهرة منغلقة على ذاتها، لا يكون الفرد أو الذات الفردية فيها أكثر من منتوج خالص لها.[المترجمين].

ومع ذلك، أختم في الاتجاه المعاكس. إذا كانت السوسيولوجيا الكلاسيكية قد تحللت منذ زمن طويل، فسيتم بالفعل إحلال سوسيولوجيا جديدة محلها، ولا ينبغي لأي شيء الآن أن يُرجِئ تفَكُّراً من شأنه أنْ يُتيح تواصلاً أفضل بين الفاعلين. وعلى هذا النحو، فإن مسألة بناء وصياغة سوسيولوجيا متكاملة ومغايرة، في الآن ذاته، في ظل عالَم مُعَوْلَم ومتشظي، تدعونا جميعاً اليوم إلى المشاركة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021